الفصل الرابع

التفكير مقابل الذاكرة

فى سنة ١٩٥٧ ، أظهر القمر الصناعى الروسى لأمريكا أن هناك آخرين فى العالم بالإضافة إلينا ، يستطيعون الإنجاز العقلى والفنى . وقد بذل كالمعتاد جهد كبير (ولكنه غير فعال) لمعرفة من هو المخطىء ، ولماذا لم نكن نحن الأسبق إلى غزو الفضاء ؟ ومع إنجازاتنا العلمية المتهاوية إلى حين ، كانت أصبع اللوم مصوبة إلى المدارس الأمريكية التى كانت متهمة بالعجز عن تعليم أطفالنا بدرجة كافية ، الحقائق العلمية التى لا سبيل إلى إنكارها فى الطبيعة والرياضيات ،وكان هذا الفشل ثمرة مرة المذاق : كانت الولايات المتحدة هى الثانية بين أحسن اثنتين فى غزو الفضاء ، وكان المربون الذين تحدثت معهم يؤكدون أن سنة ١٩٥٧ كانت بداية عهد سيء للمدارس ، ولكن المدارس الأولية بنوع خاص كانت أسوأ حظاً ، وكانت النتيجة السياسية أن جهز الأطفال الأمريكيون بزخارف تربوية وتوافق اجتماعى ، ولم يتعلموا حقائق كافية . وقيل للمربين بالمدارس الأولية أن يتغلبوا على الصعاب ويزيدوا من تعليم الأطفال ، ويضطروهم إلى مضاعفة عملهم ، ومن ثمة يرتفع مستوى معلومات التلميذ بالمدرسة الأولية (١) وأصبح الذكاء والتحصيل المدرسى مرتبطين بالحقائق أكثر من أى وقت مضى .. الحقائق التى

---

(١) ليس هذا تلفيقا من خيالى ، فان هيلين هفرمان ، المشرفة المتقاعدة على التثقيف الأولى بولاية كاليفورنيا أصدرت كتيباً شاملا فى الموضوع يؤكد هذا الرأى مع مقتبسات من المربين والآباء والطلبة (انظر نشرة مكتب التربية بولاية كاليفورنيا ، المجلد ٢٣ رقم ٨ ص ٢٨٩ — ٣٠٦) .

يتذكرونها أولا – وكان ينظر إلى أطفال المدرسة كأوعية فارغة – أوعية يجب أن تملأ بالمعلومات حتى حافتها ، وعند بلوغ الحافة يستخدم الضغط حتى لمزيد من الحقائق والمعلومات لحشو الأوعية .

بدأ هذا الموقف فى صورة جدية وتضخمت قوته وعزز بعد ظهور العقل الالكترونى مباشرة باعتباره إلهنا العقلى ، وكانت الوسائل الإعلامية فى الخمسة عشر عاما الماضية قد أطرت العقل الالكترونى على أنه السلاح النهائى فى الحرب لحل مشكلاتنا الكثيرة ، وجرت مقارنة مغلوطة وهى أنه كلما شابهت تربية أطفالنا تلقين العقل الالكترونى بالمعلومات ، حسنت التربية ؛ وربما كانت ذروة هذه الفلسفة اهتماما شديدا ببرامج الشخصيات التليفزيونية الساخرة ، وهى البرامج التى بذرت بنفسها بذور هلاكها ، بوحى أنه ما من إنسان يمكن أن يلقن إلى الحد الذى يستطيع معه بعض الممثلين ، العرض كل أسبوع . وبالرغم من انفضاء برامج الشخصيات الساخرة ، فلا يعرف الجمهور حتى الآن ما هو خطأ الصور الكاريكاتورية التى تمثل الشخص البارع ، وجميعنا فيه طفل صغير مازح . ويحتمل أن يكون سبب هذا أن الاستجابة إلى المسائل الساخرة من السهولة بحيث يمكن رؤيتها وقياسها ، فى حين أن التفكير غير ملموس ويصعب قياسه ، كما يصعب تقييمه بسرعة وبساطة .

وبسبب صعوبة قياس التفكير ، لا يمكن أن تكون هناك مسابقات فكرية أولمبية على الإطلاق ، وإن كان لدينا بالفعل جوائز نوبل ، وجوائز المدارس العالية والكليات ، مثل جائزة جمعية التكريم الوطنية Notional Honour Society وجمعية « فاى بيتا كابا Phi Beta Kappa» وهى أكثر قربا إلى ألعاب المرح منها إلى الإنجاز الفكرى الرفيع ، ثم (كما سنبحث فيما بعد) لكون قياس الأخيرة بالغ الصعوبة ، ولايزال النظام الراهن يقول : « تعلم قدر ما تستطيع وتذكره ، ثم أعده فى الامتحان » فاذا أصبحت عادة

الاستظهار صعبة جدا ، فلا يلوم أحد الطالب على استعماله « الترجمات الحرفية » والمساعدات التعليمية الأخرى . ولربما لا يتوقع أحد أن شخصا ما يستطيع أن يتعلم ويتذكر كل شيء يسأل عنه ، من تلاميذ المدرسة ذوى التحصيل الغزير فى الوقت الحاضر ، حتى لو كان يرتكب الغش ، وإن كان مسئولا عنه ، إلا أنه يستطيع التسامح فيه مادام لا يفلت من يده ، كما أن من يقبض عليهم ليسوا كثيرين . وينهار النظام انهيارا محزنا فى حالات مثل فضائح الغش فى أكاديمية القوات الجوية ، فهل أخطأ طلبة الكلية العسكرية أم هو خطأ النظام نفسه ؟ إن السؤال لم يظفر بعد باجابة ترضى أحداً .

إن ما نطلق عليه الآن تربية ليس إلا جمع معلومات وتذكرها ، أما حل المشكلة والتفكير فلا يشكلان جزأين قويين فى نظامنا التربوى ؛ إذ انحدرا فى كل شيء عدا موضوعات علمية قليلة . وتعتبر هذه الموضوعات فى كثير من المدارس الثانوية High بالغة الصعوبة ، حتى أن الطلبة المقيدين بالكلية يتحاشونها خوفاً من الدرجات الصغيرة ، ويبقون على المواد المضمونة التى تعتمد على الذاكرة ، وبذلك يقللون من الإنتاج العلمى الكامن فى النظام التربوى ، ومن ثمة ينتجون ، كما يحدث فى معظم الأحوال الأثر العكسى للمقصود ؛ ويبذل الآن فى جميع مستويات التربية جهد شاق ، ربما يبلغ الذروة فى الكلية ومعهد التخرج ، لتلقين الناس المعرفة التى يمكن التنبؤ بها بنفس الطريقة التى تلقن بها العقول الالكترونية .

وتشدد التربية فى وظيفة من وظائف العقل البشرى أقل خطرا وهى الذاكرة ، فى حين أنها تهمل نسبيا وظيفته الكبرى وهى التفكير ؛ ومع أننى أريد توكيد الحاجة إلى زيادة جميع أنواع التفكير فى مدارسنا بدلا من تحليل أنواع التفكير ، فان بحثا قصيرا عن التفكير الذى يمكن تطبيقه فى التربية مسموح به هنا ، أما التفكير المستخدم على أوسع نطاق ، فهو التفكير الضرورى فى المسائل ذات الإجابات المحددة ، ومع أن هذا النوع من التفكير

يدرس في المدارس تدريساً حسناً إلى حد ما في الرياضيات والعلوم وقواعد اللغة ، فان الإجابة نفسها أو أسلوبها كثيرا ما تكون أهم من الخطوات المنطقية للوصول إليها ، ومن ثمة تقدير التفكير تقديراً بخساً ، وأقل من هذا كثيرا الجزء من البرامج المدرسية الذي يظن أنه يؤدي إلى أفكار تتصل بالمسائل التي ليس لها إجابات محددة أو صحيحة ، فنحن بحاجة إلى التحقيق في المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية بل والمدرسية التي يوجد لها في أحسن الظروف مجموعة من البدائل ، ليس بينها ما يبلغ حد الكمال ، ولكن بعضه فيما نأمل ، خير من الأخرى ؛ فحرب فيتنام ، وعمليات التخطيط ، والحقوق المدنية ، والفقر وخفض السن القانونية للتصويت ، كلها أمثلة للمشكلات التي تؤدي إلى كثير من النقاش ، ولكن إلى قليل من الاتفاق ، وتميل المدارس إلى النفور من المناقشات العقلية العميقة ، وبعملها هذا تمحو استخداما هاما للتفكير بوصفه جزءاً من التربية .

إن النقد الفني يحظى في بعض المدارس الثانوية بقليل من التشديد ظناً منها أنه يؤدي إلى التقييم الناقد في الأدب أو الفن أو الموسيقى أو السينما أو التلفزيون ، ويجب تدريس التفكير النقدي عن طريق المناقشات، ابتداء من المدرسة الأولية فصاعدا ، ولما كانت الفنون تتخلل ثقافتنا بصورة أعمق ، فان الطلبة الذين يتعلمون الإعجاب بها يجب أن يكونوا في مركز أفضل لكي يستمتعوا بغزارة فرص الدراسة المتاحة في هذه الأيام ، حيث تتزايد أوقات الفراغ . إن تقدير الفن الحقيقي لا يعلم باستظهار اسم الشخص الذي أنتجه ومتى أنتجه — وهي الطريقة التي جرت عليها المدارس .

ويتصل بالنقد الفني اتصالا وثيقا نوع رابع من التفكير يمكن أن أطلق عليه التفكير الخلاق . ويجب أن يكون لدى الطلبة فرص أكبر كثيرا مما لدى معظمهم في الوقت الحاضر لكي يبدعوا في الفن والموسيقى والمسرحية والأدب ، بل في السينما والتلفزيون (نظرا لكون المدارس تملك بدرجة

متزايدة ، وفى كثير من الأحوال المعدات اللازمة للأخير) ، وبالرغم من أن بعض المدارس تؤكد الآن بالفعل أهمية هذه الموضوعات ، إلا أنها يجب أن تكون جزءا محددا وضروريا فى البرامج المدرسية ، من المدرسة الأولية حتى المدرسة الثانوية لأن الموضوعات التى تحتاج إلى موهبة الإبداع تبخس قيمتها عادة وتعتبر غير عملية ، ومع ذلك يمكن فى معظم الأحوال أن تؤدى مباشرة إلى حفز ومشاركة وعلاقة ، وكلها ضرورية جداً لنجاح الطلبة .

لا تشدد التربية على التفكير ، وكذلك على الذاكرة الموجهة ، إلا أن كل المدارس والكليات تقريباً يسيطر عليها « مبدأ اليقين » ، وبناء على مبدأ اليقين ، توجد إجابة صحيحة وأخرى خاطئة لكل سؤال ، فوظيفة التربية إذن هى ضمان معرفة كل تلميذ للإجابات الصحيحة لمجموعة من الأسئلة التى يقرر المربون أنها هامة ؛ وفى أثناء حديثى مع مدرسى مدرسة أولية وسؤالهم عما إذا كانوا يسمحون بالمناقشة الحرة فى فصولهم ، قال لى عدد كبير من المدرسين بحماسة إنهم يشجعون المناقشة الحرة بالفعل ، ويقولون : « إننا نبحث كل شىء إلى أن نصل إلى الإجابة الصحيحة » ومع أن هذا يمكن ألا يكون مطابقاً للحقيقة ، إلا أنه يحدد المشكلة على وجه التأكيد .

والأطفال الذين يأتون إلى المدرسة وهم يحملون فكرة أن لكثير من الأسئلة أكثر من إجابة محتملة ، سرعان ما يتغلبون على هذه الفكرة ، وفى المدارس الأولية ، يوجه الطفل بعد الطفل إلى الاعتقاد بأن المدرسة تهتم قبل كل شىء بالإجابات الصحيحة ، وأن المدرسين والكتب هم مستودع هذه الإجابات الصحيحة . والطفل غير العادى الذى يتساءل عن مبدأ « اليقين » بقوله إنه قد لا يكون هناك إجابة واحدة صحيحة تماماً ، أو أية إجابة صحيحة على سؤال تربوى معين لا يمهل إلا قليلا ، وما لم يكن لهذا الطفل غير العادى ، مدرس غير عادى ، فسرعان ما يتعلم أنه بالرغم من أن تفكيره قد يحصل فى النهاية على تقدير قصير الأجل ، بصرف النظر عما

يمكن أن تكون عليه مناقشته من عمق فى التفكير ، فان العقاب يكون هو الإجابة الصحيحة .

ولا يسيطر مبدأ اليقين على المنهاج التربوى وحده ، بل يسيطر أيضاً على قوانين المدرسة فيما يتعلق بسلوك الأطفال ؛ والأطفال يدركون أنهم لا يقومون بدور فى اتخاذ القرارات المتعلقة بسلوكهم أو اشتراكهم فى المدرسة ، والذين تعلموا شيئاً صورياً فى روضة الأطفال عن قيمة طريقة حياتنا الديمقراطية يعرفون بالتجربة أن المقدمة المنطقية الأولى للمجتمع الديمقراطى – وهى أن الذين يشتركون فى أية محاولة تساعد على إقرار قواعدها – لا تطبق عليهم . ونتساءل عن سبب وجود هذه الفوضى فى مجتمعنا بالإضافة إلى ما عليه الديمقراطية من فوضى .. هل يمكن أن تنشأ هذه الفوضى من عدم ممارسة الديمقراطية فى المدرسة ؟

يجب أن يكون للأطفال صوت مسموع فى تقرير كل المنهاج وقوانين مدرستهم ، وخير وسيلة لتعلم الديمقراطية هى أن نعيشها ! ! والأطفال الذين يلتحقون بمدرسة ، يطلب إليهم فيها عمل حمل بعض مسئولية المنهاج والقواعد ، يستكشفون الديمقراطية ، ويستكشفون أيضاً وجود مشكلات كثيرة ليس لها حلول محددة فى مدرسة ديمقراطية ، كما هو الحال فى بلاد ديمقراطية ، والأفضل أن يتعلموا (وسنشرح الطرق التى يمكن أن ينفذ بها هذا بالمدارس ، فى فصول تالية) أن عليهم مسئولية إيجاد أحسن البدائل لطائفة من المشكلات الصعبة ، وهى المشكلات التى يستطيعون هم أنفسهم طرحها ، فعملية بسط المشكلة وإيجاد بدائل معقولة ، واستعمال ما يبدو أنه يفضلها جميعا هى التربية ، وهى على عكس العملية الجارية ، أى الطاعة العمياء للقواعد (أو الخروج عليها) ، أو ترديد الإجابات الصحيحة (أو الخاطئة) عن الأسئلة التى يطرحها غيرهم ، ومادام مبدأ اليقين مسيطراً على نظامنا التربوى ، فلن نعلم أطفالنا التفكير ، فالذاكرة ليست تربية ،

والإجابات ليست معرفة ، واليقين والذاكرة معاديان للتفكير ومحطمان لروح الخلق والإبداع .

يضاف إلى مبدأ اليقين ، أن مثل التربية ، مثل أشياء كثيرة فى مجتمعنا ، يسيطر عليها « مبدأ القياس » : ويمكن تعريف مبدأ القياس بأنه « ليس هناك شيء له قيمة حقيقية ما لم يخضع للقياس وتعين له قيمة رقمية » . والقيم الرقمية ضرورية للمقارنة بقيمة أخرى أو قياس آخر . والحقائق التى يتذكرها طالب ما مقارنة بالحقائق الأخرى هى العمود الفقرى للقياس التربوى .

لاحظت أثناء زيارة أخيرة لمتحف متروبوليتان للفن فى نيويورك مثالا مثيراً لإعمال مبدأى اليقين والقياس . ورأيت أثناء تجولى فى المتحف مجموعة من السيدات الصغيرات الجذابات يفحصن الصورة تلو الصورة ثم يكتبن مذكرات مسهبة فى كراسة مذكرات مدرسية ، وبينما كنت أسير داخل المتحف أتطلع إلى الرسوم ، حيرنى نشاط الفتيات المسعور ، ولم أستطع لجهلى ما يستطيع شخص أن يكتبه بهذا التفصيل عن صورة ، ولما تزايد فضولى صممت على سؤال إحدى الفتيات اللائى يسجلن المذكرات ، فذكرت لى أنها لا تقتصر على تسجيل عنوان الصورة واسم الرسام ، وملاحظات عامة عن الصورة (وهذا يمكن فهمه) . ولكنها تكتب أيضاً مذكرات مطولة عن الإطار . وعن الصور المعلقة التالية لها . وعن مميزات الصورة نفسها ، وكان المقصود من مذكراتها معاونتها على تعيين هوية كل صورة عندما يعرض مدرسها الفنى بكلية برنارد شريحة لها على الشاشة فى الفصل ، وكانت تستعد لاختبار هام فى « التطبيق الفنى » ، ومن الواضح أن الطلبة اكتشفوا بمرور السنين أحسن وسيلة لتعيين هوية الصور ، وهى البحث عن مفاتيح معينة للحلول فى الصورة نفسها ، وإطارها وموقعها بالنسبة لصورة أخرى ، وكان مدرسهن من أتباع مبدأ اليقين ومبدأ القياس .

وبينما كنت أشاهد الفتيات يبحثن ناشطات عن مفاتيح لتعيين هوية الصور ، لم أكن أصدق أن جدهن فى أخذ مذكرة سينتهى إلى تقدير للفن أو الفنانين أو المتحف ، وبالرغم من انشغالهن ، لم يكن منهمكات فى الفن . واستخدام المدرس لمبدأى اليقين والقياس يؤدى إلى قتل اهتمام تلاميذه بالفن . ولتلاميذ كلية برنارد الخيار فى تلقى أو عدم تلقى هذا المقرر فى فهرسة الفن (بفرض أنهم يعرفون نوع المقرر عند التوقيع ، وهو فرض يحتمل ألا يصدق بالنسبة لعدد كبير) . ومع ذلك لا يوجد اختيار فى مدارسنا الأولية والثانوية حيث يتحتم أن يتلقى الطالب معظم المقررات .

ولنبحث كيفية استجابة الطلبة عاطفياً لمبدأ اليقين ومبدأ القياس ، هل كان ما يفعله طلبة كلية برنارد فى متحف الفن عملا ساراً ؟ وهل ينجم عنه شعور بالرضا ، أى شعور بالإنجاز ؟ وهل يؤدى إلى الحث من خلال الإشباع العاطفى على الابتعاد إلى أبعد من ذلك لمعرفة شىء أكثر عن الفن ؟ أو هل يؤدى إلى العكس تماماً ؟ بالرغم من شعورنا بالرضا إذا كان ما نفعله صواباً يعتمد على الذاكرة وحدها ، فان رضاءنا يدوم مدة أقل ، ولكننا نظفر باشباع أكثر دواماً حين يكون صوابنا ناجماً عن التفكير أو الحكم أو اتخاذ قرار بدون الحافز الخارجى الذى يوفره المال ؛ وألعاب القمار البسيطة التى لا تحتاج إلى إعمال الفكر مثل لعبة البنجو Bingo لا يدوم إشباعها طويلا ، فى حين أن لعبة الشطرنج ولعبة البردج تؤديان بشروط صعبة ودون أية مقامرة ، وتوفران مع ذلك إشباعاً كبيراً ؛ فالإشباع قليل حين نصيب ، ما لم يتدخل التفكير والحكم فى العملية . أو ما لم يكن هناك ربح خارجى .

ان فتيات كلية برنارد اللائى يجبن إجابات صحيحة فى اختيار الصور والفهرسة لا يشعرون على أحسن الفروض بالضعف ، ولكن من المستبعد أن يشعروا بالقوة لمجرد استظهار ١٧٥ صورة ، وأحسن ما يمكن أن يحدث

لأى شخص يقصر استخدام عقله على التذكر فقط ، حتى إذا كان ناجحاً هو عدم شعوره بالضعف ، وإذا لم يكن ناجحاً – من ناحية أخرى – فى الاستظهار ، ولم تكن لديه فرصة لاستخدامه فى وجه آخر (كالتفكير مثلا) ، فانه يشعر بالضعف حقاً ، ومن ثمة فان اختبار تذكر الصور ، كمعظم اختبارات الحقائق ، طريق مسدود .

فلا عجب إذن أن يؤدى الاستظهار الذى يبجل تبجيلا كبيراً فى التعليم الحالى ، إلى ضجر أولئك الناجحين ، والإحباط والتعاسة لغير الناجحين ، ولا يمكن أن يوفر استظهار الحقائق شعوراً عميقاً بالرضا – وهو شعور يمكن وجوده فقط حين يستخدم الطالب عقله فى التفكير – ومن ثمة يصل إلى إجابة أو بديل لها يحل المشكلة المتصلة بحياته وبمجتمعه ، فما لم نستطع إخضاع السيطرة التى يحتفظ بها الآن مبدأ اليقين على النظام التربوى ، فسوف نجعل النظام الذى يفقد فيه التلاميذ الحافز الداخلى شيئاً فشيئاً كلما قل ما يحصلون عليه من الإشباع ، نظاماً أبدياً ، ويتزايد اعتمادنا على الحوافز الخارجية – النصائح والدرجات والتهديدات والعقوبات ، بل الحرمان من المدرسة – بالنسبة لأولئك الذين يفشلون فى الاستظهار على مستوى تعتبره مدارسهم وآباؤهم ، أو هم أنفسهم ملائماً ، ومبدأ اليقين بعجزه الشامل عن إمداد الطلبة بالإشباع العاطفى المتكافئ من جهودهم سبب هام فى الفشل التربوى .

ويظهر الفشل أولا فى المدينة المركزية حيث يرى الأطفال معنى ضئيلا فى العمل على الحصول على الإجابات الصحيحة ، حتى عن الأسئلة المتوسطة الصعوبة ، وإن كانوا يحبون الإجابة على أسئلة بسيطة جداً ؛ والمدرسون الذين يدرسون الإجابات الصحيحة يصيبهم الإحباط ، لأن الأطفال يرفضون ما يدرس لهم حالما يرتفع عن أبسط مستوى ، ولا يعرف هؤلاء المدرسون ، القوة الحافزة على التفكير ؛ وسرعان ما يفقد الأطفال الاهتمام ،

وبالرغم من وجودهم فى المدرسة بأجسامهم فان عقولهم تكون شاردة ، وفى خارج المدينة المركزية ، حيث إلحاح الوالدين والجماعة على الأطفال للتخرج بتقديرات عالية تتراوح بين المتوسطة والعالية جداً ، فان كثيرا من الأطفال يبذلون الجهد الضرورى للحصول على الإجابات الصحيحة والنجاح فى المدرسة ؛ ومع ذلك فان الملل والإحباط الناجمين عن مبدأ اليقين ، ينعكسان على التوتر المنزلى الذى يرجع إلى مشكلات مدرسية ، التوتر الذى يؤدى إلى السلوك المضطرب الذى يشاهد فى الجنوح الشديد فى جميع أجزاء الجماعة .

ومما يبعث على كثير من الدهشة ، أن الأطفال الدارجين الفاشلين فى مرحلة ما قبل المراهقة بالمدينة المركزية ، يعبرون عن حبهم للمدرسة ، وحتى لو كانوا من الفاشلين ، فهم فى مكان حسن التنظيم يعاملون فيه معاملة حسنة ، يقابلها البيت بالارتياح فى كثير من الأحيان ، أما أطفال الضواحى بالمدرسة المتاحة فيها كل الفرص التربوية فعلى العكس ، إذ يقولون أنهم يكرهون المدارس لأنها كئيبة وفيها رتابة مملة ، ولا تفضل البيت فى شىء ؛ وقالوا لى فى اجتماعات الفصل أنهم ينعمون بقدر أوفر من المرح فى بيوتهم الحسنة التنظيم ، يلعبون بدماهم الكثيرة مع أصدقائهم أو وحدهم ، ومن بين الذين لم يعبروا عن كراهيتهم للمدرسة — وهم كثيرون جداً — عدد قليل يستمتع بالمدرسة إذ يرون فيها إعدادا اقتصادياً ينتهى بالحصول على شهادة (دبلوم) ، شهادة كفيلة بنقله إلى السوق مباشرة للحصول على المال ، فالتربية من أجل قيمة الأنشطة وإمتاعها فى حل المشكلات والتفكير والإبداع يحبطها مبدأ اليقين ومبدأ القياس .

يمكن فيما يتعلق بالضرورات السيكولوجية التى نوقشت فى الفصل الثانى ، تحقيق قليل من التطابق الناجح باستخدام العقل كحاجز للذاكرة ، ومجرد الاحتفاظ بالمعرفة دون استخدامها لحل المشكلات المتعلقة بالشخص

نفسه وبالمجتمع يحول دون التطابق الشامل مع الآخرين ومع العالم ، ومبدأ اليقين يؤكد العزلة أكثر مما يؤيد التعاون والمشاركة ، فكل شخص لديه حق الإجابة ، والإجابة الصحيحة ذات قيمة فى ذاتها ولذاتها ، لا بوصفها وسيلة لحل مشكلات الشخص الخاصة أو مشكلات الآخرين ، ولذلك فان الطفل الذى يناقش بنجاح النظام التربوى بمجموعة من الإجابات الصحيحة منافساً للأطفال الآخرين الذين يبحثون عن هذه الإجابات الصحيحة ، يميل إلى العزلة بدرجة أكبر ، وإلى التسليم بهذه الإجابات الصحيحة كنهاية ونتيجة لمجهوده ؛ ولكون هذه الإجابات ذات صلة ضئيلة بالعالم ، فلابد له من البحث عن معظم تربيته خارج المدرسة (إن وثاقة الصلة التى ذكرت مرات عدة فى هذا الفصل وفى الفصول السابقة ، ستبحث بالتفصيل فى الفصل التالى ، ومع أننى كنت أفضل أن أفصل بين هذه الموضوعات بقصد الوضوح ، إلا أنها متماسكة لا يمكن فصلها ، وذكر أحدها يؤدى بالضرورة إلى ذكر الآخر) .

يظهر كثير من الأطفال اندماجاً واضحاً ، ولكنهم يفعلون هذا بالرغم من عملية التربية وليس نتيجة لها ، فالاعتماد على الذاكرة يؤدى إلى ضعف عملية الاندماج والتى يجب أن تكون إحدى كتل البناء الأساسية فى الاندماج ، كثيرا ما تقوم بمساعدة إيجابية ضئيلة لأولئك الذين ينجحون ، ولكن من المؤسف أنها تساعد إلى حد بعيد على الاندماج الفاشل بين أولئك الذين يفشلون ، ومغزى الفشل أقرب كثيرا من مغزى النجاح ، وكان هذا الموقف المؤسف يحيرنى دائماً . ولعله يتوقف على علاقات الطبيعة البشرية المقلقة ، وذلك أن عددا قليلا جدا يحتفظ لمدة طويلة بمشاركة إيجابية مع أناس مسئولين ممن يقدرون قدرنا ، وبالرغم مما يؤلم فى الوحدة والعزلة ، فانهما أمران يسيران ، ولا يقتضينا الفشل جهداً كبيرا ، فى حين أن النجاح يتطلب منا جهدا ، وإذن فنحن نميل إلى العجز عند فشلنا ، وإلى أن نصبح أكثر عزلة وأقل تحركا ، محبوسين فى فشلنا كالمساجين لا نذهب إلى أى مكان ؛ ومن

ثمة يبدو النجاح دائماً فى نظر الفاشل بعيدا ، يصعب الوصول إليه ؛ والطريقة الوحيدة لبلوغه هى التفكير والعمل والارتباط بالآخرين ، وهو دور أصعب فى نظر معظمنا من الجلوس فى صومعتنا نندب حظنا ، ونحن ندرك الفائدة المتزايدة للعاطفة فى أوقات الإجهاد ، والشكاوى الغامضة أو المنسجمة من جانب الفاشلين الذين لا يعرفون كيف يفكرون تفكيرا فعالا ، والذين لا يجدون إجابات مستظهرة من طراز إجابات المدارس لحل مشكلاتهم ، أما المجتمع الذى يحصر أمله الوحيد فى حل المشكلات المعقدة التى تواجهنا على أساس عقلى وبطريقة فعالة ، فيجب تغيير نظامه التربوى الذى يتجنب هذه المشكلات ، ولا يعد الناس لمعالجة المشكلات علاجاً إيجابا .

إن الناس الذين يجدون استجاباتهم العاطفية التى لا تنبنى على تفكير ، غير مرضية ، يتعلمون تجنب المواقف الجديدة المجهدة ، ومن ثمة يقيدون حياتهم ، ويخذلون بذلك أهداف التربية . وأهداف التربية هى تزويد الناس بالأدوات العقلية لمعالجة المواقف الجديدة بطريقة فعالة ووضع قيود أقل على حياتهم ، تلك القيود التى يسببها الخوف من المشكلات الصعبة ، ولتمكين الناس من معالجة المواقف الجديدة والمشكلات الصعبة بطريق العقل لا العاطفة ، ولا يمكن بلوغ أحد هذه الأهداف بواسطة التوكيد على مبدأ اليقين والقياس الحاليين ، وتكون نتيجة هذا التوكيد بحث صغار الناس عن بدائل غير منطقية وغاضبة فى المواقف المشكلة التى ليس لها إجابات صحيحة، وهناك أناس صغار آخرون يجدون السلوى فى تعاطى المخدرات والانسحاب إلى الوهم ، بدلا من تعلم معالجة ما يشكون منه بذكاء ، وهذه هى مشكلاتهم ومشكلات مجتمعنا ، ويتزايد استعمال المخدرات والكحول بين الصغار من شعبنا ، وبخاصة بين مجموعتين كبيرتين هما :

(١) أولئك الذين يفشلون فى نظامنا التربوى . (٢) أولئك الذين لا يجدون علاقة بين النظام التربوى وحياتهم ، أو بينه وبين مشكلات العالم.

وبالإضافة إلى تعاطى المخدرات ، فان الشبان الصغار الذين لم يشجعوا فى المدرسة على التفكير ، والذين سيطر مبدأ اليقين على سنوات تربيتهم الرسمية ، والذين تكون استجاباتهم صراعاً وعداء وسخرية من المقاييس الاجتماعية والقواعد الأخلاقية ، حين يتأكدون من أن كبارهم ليسوا على صواب . ولا تستطيع إحدى المجموعتين فيما يبدو استخدام العقل . إن قدراً كبيرا من المآسى الاجتماعية والشخصية يكون الثمرة المريرة للصراع وسوء الفهم بين الأجيال . والتسليم اللطيف بالصراع يعد إلى حد كبير جزءا من مجتمعنا ، المجتمع الذى يعيش فقط من خلال التعاون ، ولكن التعاون وهو نتاج تقييم ذكى لموقف الشخص الاجتماعى ، يدرس تدريسا ضحلا فى تربيتنا العصرية المتنافسة .

وبالرغم من أن قليلا من التلاميذ يشتركون فى العمل السياسى يظفرون بشهرة واسعة ، فقد أظهرت دراسة حديثة أجراها جوزيف كاتز (١) بجامعة ستانفورد ، أن معظم التلاميذ لا يهتمون بالشئون السياسية إلا قليلا ، فهل استظهارنا للحقائق ونظامنا التربوى مسئولان عن فتور الشعور إزاء المسئولية السياسية ؟ نحن بحاجة إلى أحرار عميقى التفكير ،ومحافظين منطقيين ولكننا نخشى أن يضم المنهج المدرسى شئونا سياسية ، وحين يدلى المواطنون بأصواتهم دون تقدير قائم على التفكير ، فانهم ينتخبون السياسيين الذين يتعهدون بالإجابات السهلة والحلول السريعة والصور الجذابة ، وكلها مناقضة للديمقراطية .

وأسوأ من هذا كله أن عدداً كبيرا من الشبان يتجنبون المسائل الفعلية لأنهم لا يفهمون أن هذه المسائل ليس لها إجابات سهلة . وعند عدم نجاح

---

(١) Growth and Constraint in College Students, Stanford University Press, 1967.

الإجابات السهلة أو صلاحيتها ، يتجنبون المسألة برمتها ؛ فيجب لمقاومة تحاشى التحدى والمسئولية ، إنقاص سيطرة اليقين فى التربية. ومادمنا ننظر إلى التلاميذ على أنهم أوان فارغة ، يجب أن تملأ بالحقائق ، ومادمنا ندربهم على أن يكونوا عقولا ألكترونية ، يعطوننا إجابات تنبؤية على أسئلة تنبؤية ، فنحن نبذر فى صميم النظام الديمقراطى والنظام الاجتماعى بذور انهيارهما .